الفصل الرابع

شعـر الرثـاء

1 ـ قصيدة الشاعر «سيدي محمد بن حامد بن محمد بن إبراهيم،» يرثي بها «حما النحوي».

2 ـ قصيدتان للعالم والأديب «محمد بن محمود الأرواني» يرثي بالأولى بعض إخوانه. وبالثانية يرثيه صديقه «الشيخ عيسى».

3ـ قصيدة الفقيه والشاعر «عالي التنبكتي» يرثي بها «يحيى الونكري».

الرثاء: لون من ألوان الشعر الصحراوي

شاعر الصحراء دائما يتفاعل بأحاسيسه ومشاعره مع الواقع المحيط به، فالرثاء لون من ألوان الشعر عبر به الشعراء عن عواطفهم، فشاعر الصحراء مرهف الإحساس رغم أنه يعيش في بيئة تنعت بالقسوة.

وهذه القصيدة التي بين أيدينا للشاعر سيدي عالي التنبكتي يرثي فيها صديقه يحيى الونكري الذي فارقه، وكأنه يقول بأن الموت سرق أغلى صديق، وهو يخاطب الحاضرين ويعظهم في نفس الوقت بأن الدنيا دار الفناء والآخرة دار البقاء، وأن الذي يسير في الدنيا دون أن يلتفت إلى الآخرة فهو من الذين طمس الله على قلوبهم. ويرثى صديقه الونكري ويعدد شمائله وعلمه الذي نفع به العباد، ويخاطبه بعبارة صريحة بأن الأنام كلهم يشهدون لك بالتقوى والعلم. ومن شدة لوعته عليه يقول له حزت الشهادة، وكنت من المرضي عنهم لأن شيخهم التجاني راضٍ عنه. ومن هنا ندرك أن الشاعر والمرثي من أصحاب الطريقة التجانية المنتشرة في السودان الغربي، وهي تأتي بعد الطريقة القادرية.

ويختم حديثه بالصلاة علي رسول الله ﷺ.

فالفقيه والمؤدب والعالم والمدرس يعتبرون في السودان الغربي وفي غيره من المواقع مراكز إشعاع علمي يزيحون بعلمهم دياجير الجهل الذي ينعت بالظلام، وفي مدارسهم المبنية بأعواد القصبة أو خيام الشعر أو تحت شجر الطلح المنتشر في صحراء السودان الغربي أو في مساجدهم المبنية بالطين يدرسون اللغة العربية والقرآن الكريم والفقه، وعندما يتوفى منهم أحد يترك فراغًا واضحًا، حيث يعتبر موته خسارة لهم. وتتحرك مشاعر الشاعر لهذا الحدث، ويهرع أصدقاء العالم وتلاميذه يرثونه بقصائد تعبر عما يخالجهم من آلام وأحزان لفقدهم عَلَمًا من أعلام

المنطقة. وهذا نموذج من قصيدة للشاعر سيدي محمد بن حامد بن محمد بن إبراهيم يرثي بها شيخه حما النحوي.

وفي هذه القصيدة يذكر شمائل شيخه من علم وأدب وعدل وبشاشة الوجه وحسن المعاملة، ويطلب من الله أن يسكنه فسيح جناته بما أسداه للعلم وأهله من خدمات جليلة يذكرها الذاكرون من بعده.

وصدق رسول الله «ﷺ» حين قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو ابن صالح يدعو له أو علم ينتفع به».

بكت عيني بدمع من صديد ... على متواضع ورع عفيف
يلاقي بالبشاشة من أتاه ... وفعل ملاطف ندب شريف
ويقبل إن به ضيف ألَمّ ... بخد ساطع حسن طريف
أرقت لحزن مهلكه بليل ... بعيد الصبح في أسف كثيف
ولكن كيف يبقى بين خلق ... قليل الخير مع دهر عنيف
أيا من قد قضى بالعدل فيه ... أدم سكناه في ظل وريف
ونق ثيابه برضًا وعفو ... ومحو الوزر مع رفق لطيف
ونور قبره بشعاع نور ... بدا من نور ذي الشرف المنيف

وهذا نموذج آخر من الرثاء للعالم محمد بن محمود بن الشيخ الأرواني يرثي به بعض إخوانه.

نبذة عن حياة الشيخ محمد محمود الأرواني:

عالم وأديب من علماء تنبكت، ولد عام 1911 بمنطقة أزواد شمال تنبكت، وكان ذا شخصية وهيبة. تربى تربية إسلامية، ودرس على علماء عصره، وظهر نبوغه الفكري. ولي القضاء في تنبكت، وهو منصب رفيع لا يتولاه إلا من كان متمكنا من العلم وحسن التدبير، زار مصر في عام 1954م وقابل فقيد العروبة وإفريقيا الرئيس جمال عبد الناصر، وكتبت عنه جريدة الأهرام مقالات. ثم زار

الجمهورية التونسية في نفس السنة وكتبت عنه الصحف التونسية مقالات بعنوان: «ربع ساعة مع ضيف كريم»، ثم زار الأرض المقدسة والجزائر. والعلامة محمد محمود الأرواني له عدة مؤلفات جليلة في شتى فروع المعرفة.

تعرض للسجن من قبل مودى بوكيته رئيس جمهورية مالي السابق عام 1960، وأطلق سراحه موسى تراوري بعد انقلابه العسكري وولاه قضاء تنبكت، واستمر في هذا المنصب إلى أن توفي عام 1973 بمدينة تنبكت، تعرفت على ابنه عادل الأرواني عام 1985 عند زيارتي الأولى لمدينة تنبكت وزرته في بيته ونشأت بيننا صداقة، ولمست في هذا الشاب الجدية والصرامة والعلم والخلق، فهو أديب مفوه من أدباء تنبكت بالرغم من حداثة سنه، وقد زارني في الجماهيرية وزرته عام 1987، فأنا أكنُّ كل احترام وتقدير لمثل هؤلاء الشباب من أبناء قارتنا الإفريقية، ونأمل أن يحذو حذو والده في العلم فقط.

وشاعرنا الأرواني يرثي بعض إخوانه، ويذكر الحاضرين بأن الموت سنة الله في خلقه، وكل إنسان لابد أن يرتشف من ذلك الكأس، وهنا شبه الموت بالكأس المملوء بالماء ونحوه، وكل واحد يرتشف من هذه الكأس سواء كان عبدا أو سيدا، فكأنه يستمد كلمات هذا البيت من البيت الذي يقول:

الموت كأس كل الناس ذائقه والقبر دار كل الناس ساكنه

ويظهر في هذه القصيدة القصيرة انتقاء في الكلمات، وروعة في الأسلوب، وبلاغة في التصوير، واستعارة وكناية.. فهي تنم على تضلع صاحب القصيدة من اللغة العربية وبلاغتها، فهو تصوير بليغ.

وختم قصيدته بأن الموت لا مفر منه، فحتى سيد الكائنات محمد بن عبد الله ﷺ انتقل إلى جوار ربه وهو خير البرية، فالموت لا يفرق بين البشر، ولكن شاعرنا الأرواني لم ينج من الكأس الذي رثا به بعض إخوانه، وبموته فقدت منطقة غرب إفريقيا علما من أعلامها في العلم. وقد رثاه عدد من علماء غرب إفريقيا.

ولا نورد إلا نموذجا منها مخافة الإطالة على القارئ، فهذا الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى يرثي العلامة محمد محمود الأرواني بقصيدة تحتوي على خمسة عشر بيتا؛ يصور فيها الشاعر أن الدائم هو وجه الله تعالى. أما البشر فإلى زوال طال الأمد أم قصر. ويتحسر شاعرنا على أن فقد العالم من الصعب تعويضه، وضرب مثلاً بالعلامة صاحبنا الذي قال عنه: إنه لم يترك من يوازيه في العلم، وعرفه بالحَبر الراسخ قدمه في العلم، وأنه الذي يحل مشاكل المنطقة من فتاوى وغيرها.

قال سيد محمد بن حامد بن محمد ابراهيم أبياتا يرثي بها مما النحوى شيخه:

قال محمد بن محمود بن الشيخ الأرواني في رثاء بعض إخوانه:

الموت حكم الله في الأجناس	لابد للمخلوق من ذا الكاس
لم ينج منه والد لاولا	مولوده في الناس ليس بناس
وأحق بالمرء الكبير رجوعه	عن حبه طيب البقا للياس
فمالنا كلا إلى ذوق الفنا	ورحيلنا كلا إلى الأرماس
لكن فقد حفيد شيخي حامد	أشجانه ضاقت بها أنفاسي
ولأجل أجر الصبر أصبر داعيا	أهلي لفضل الصبر صبر راس
لا تجزعوا إخواننا حاشاكم	انتم رؤوس الناس يوم الباس
أمحمد صبرا لفقد محمد	فمحمد قد مات خير الناس
وصلاة ربي والسلام على النبي	هو سيد الكونين في الأجناس

* * *

العالم العلامة محمد محمود الأرواني كان قاضيا في تنبكت، توفى في سنة 1972م، فرثاه الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى بهذه القصيدة:

ألا إن الـــــدوام مـــن المحـــال ... وليـس يـــدوم إلا ذو الجـلال
وكـل فـتى وإن طـــال الزمـان ... سينقل لا محالـــة للمـآل
ولكـن فقـد أهـل العلـم شـيء ... كبيـر عنـد ذي ديـن وبـال
وهـذا الخَبـر لـم يتـرك نظيـرا ... فإنـا راجعـون لـذي الكمـال
وذاك محمـد والمحمـود سـعيا ... حبـاه الفـوز فضـــلا ذو النـوال
فمـن ذا للقضـــاء وللفتـاوي ... وحـل المشكـــلات بـأرض مالـي
لـه القـدم المعـلى فـي العلـوم ... سـمي لا يجـارى فـي المعالـي
وهمتـه لهـذا القطـر كـلا ... يعـين مـن اعتـراه بكـل حـال
فليـس مصيبـة فقـد لشـيء ... مـن الدنيـا ولـو فـوت اللآلـى
ولكـن المصيبـة فقـد شيخ ... يفـوت بفوتـــه علـم الحـلال
وياتكـرور صـبرا قـد دهمنـا ... بداهيـــة كأمثـــــال الجبـال
ويـا أروانُ يـا تنبكـت صبـرا ... فأجـر الصبـر أفضـل فـي المآل
حبـاه اللـه بالرضـوان فضـلا ... وأسـكنه الجنـان بـــلا نكـال
بجـاه شفيعنـا المبعـوث صـلى ... عليـــه إلهنـــا أمـــد الليالـي
وآلٍ ثـم أصحـــاب كـــرامٍ ... وتابعهـــم بإحســـــانٍ وتـال

* * *

قصيدة الفقيه الشاعر سيدي عالي التنبكتي يرثى بها يحيى الونكري:

ما الدار دار الدنا دارًا لذي وجَل ... كـلا وليـس نعيمهـا لـذي أمـل
بـل هـي دار عنـاء وابتـلاء ولا ... ينفـكُّ ساكنهـا مـن كثـرة الزَّلـل
يُمسي الحبيبُ سرورًا بالمحب وفي ... فجر الغداة إذا بالخطب والجـلل
لما نعوا سيدي يحيى الشقيق دهتـ ... ـني الكروبُ إلى أن غبت عن وهلي
أصبحتُ يومئذ خلوًا حليف أسـى ... أقول سُبحان ربي الحـي فـي الأزل
اللـه أكبـر هـذا وعـد خالقنـا ... ووعـدهُ صـادق مـن دونمـا خـلل
راجعـت ربـي إلهي ثم قلت إذا ... إنـا إلـى اللـه راجعـون بالوجـل

لعل رحمته تعمنا وكذا الصـ ـلات من ربنا تأتي على مهل
فلينتسب أدعياء الفضل كيف رأوا فقد تغيب عنهم صاحب النحل
وليفخر اليوم قوم بالسخاء ولا خوف فيحيى عديم الند والمثل
لو عاش لم يطرق الأسماع ذكرهم ولو رأوا جوده ولوا من الخجل
أجل فقد مات هذا الونكري أسفا وأوحشت أرضُنا في العلو والسفل
فكل نفس لعلياه حكت وشكت وكل عين بكت من سائر الملل
ولا غرابة في هذا فإن له جمر الشمائل أشتاتا بلا حيل
منها السخاء ومنها الحلم ثم تفي صبر جميل تواضع بلا دغل[1]
عدد صنوف المروءات بأجمعها ولا تخف لائما في ذا ولا تسل
يا لائما في موالاة الحبيب فلا تعدل فنانك في غياهب السبل
لو كنت تعلم ما يحويه من كرم لما تأتى لكم عتبي أخا العذل
لكن من لازمي قبول معذرة لأن أعذاركم أولى من الجدل
فاذهب فقد أثنت الأنام كلُّهم عليك إذ هم شهود الله والرسُل
حُزت الشهادة ذات الجنب تشهد لي مع السقام الذي قاسيت والعلل
يكفيك مرضاة شيخنا التجاني وذا كاف لكل مريد صادق العمل
طوبى لكم حيث جاورتم سميكم فنم فأنت عروس نام في الحجل
فالله يغفر ذنبكم ويرحمكم ويدخلنكم الجنان ذا الظلل
يا آل ونكري هذا الرزء رزأكم لكن غيركم قد غاض في الوحل
عزيتكم يا إمام القوم بأب ومن فصل الخصام له قدما وذاك جلي
ثم الصلاة على محمد وعلى الصـ ديق فاروقنا عثمان ثم علي
والآل والصحب والزوجات كلهم والتابعين منا وكل ولي

❊ ❊ ❊

(1) الدغل: العيب في الشيء يفسده.

وقال أيضًا:

يا لهف نفسي من هذا المصاب لقد ... حلت رزيته في القلب والكبدِ
يا للمدارس من يتم ومن وصب ... وطالب العلم أضحى ظاهر النكدِ
إن العلوم لتبكيكم بأكملها ... تفسير قرآنها بواضح السند
أصول مذهب مالك وعمدته ... فروع مذهبه كل بذا الصدد
يا للخليل ويا نص الرسالة قد ... رزيتها فابكيا من دونما أمد
وأصبح النحو والصرف اللذان هما ... طوع الفقيد غزير الدمع والسهد
يالهف حضرتنا ويا وظائفنا ... من ذا لنا ولها بالنصح والمدد
ياشمس فضل زماننا المنير ويا ... بحر العلوم به من غير ما فند
قد غبت عنا ولكن نور بهجتكم ... باق ومجدكم باق مدى الأبد
قد غاب طاهرنا وغاب عارفنا ... وغاب من يفتدى بالمال والولد
ربيتنا بصغار العلم ترشدنا ... وحيث صرنا كبارا كنت ذا أود
تواضعا منك لا أمرا تبينه ... مما احتويت عليه جيد العهد
بالله فالله ما علمت مثلكم ... من بيننا باقيا في القطر والبلد
وما شهدت بغير الحق في قسمي ... ولا على إذا ما قلت معتقدي
عسى الإله بفضل الله يجمعنا ... تحت الظلال ظلال عرشه الرغد
في جنة الخلد دار المتقين وفي ... أقصى الجنان وعند رؤية الصمد
صلى إله الورى ما قال قائلنا ... إن المدينة تنبكت لفي كمد
على النبي المصطفى وآله الكرما ... والناس ما بين ذي حزن وذي جلد

❄ ❄ ❄